العنوان:	التصوف والثقافة فى المغرب أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين : ملاحظات أولية
المصدر:	مجلة أمل
الناشر:	محمد معروف
المؤلف الرئيسي:	العلوي، محمد الفلاح
المجلد/العدد:	مج22, ع42
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2014
الصفحات:	21 - 32
رقم MD:	870806
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink, AraBase, HumanIndex
مواضيع:	التصوف الإسلامى، الثقافة الاسلامية، التاريخ المغربى، الموروثات الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/870806

التصوف والثقافة في المغرب

أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين
ملاحظات أولية

محمد الفلاح العلوي*

الوظيفة الثقافية للتصوف

نتطلق من مقولة مشهورة تقول: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تفوق. ولهذا القول أكثر من دلالة: منها أن للتصوف رسالة ثقافية اجتماعية، وللثقافة الصحيحة إطار صوفي يوجهها. وارتباط تكوين النخبة بضرورة الجمع بين الإطار والمضمون. وبلوغ مرتبة الإحسان لا يكون إلا بالجمع بين علمي الظاهر والباطن.

ولهذا كان للتصوف وظيفة ثقافية يمكن إجمالها في ما يلي:

- إضفاء طابع التربية الروحية على مسلسل التعلم والدرس منذ مراحل تلقن الأبجديات إلى مراحل التعمق في العلم بمختلف جوانبه.

- خلق تطور في السلوك الاجتماعي للنخبة ودورها في المجتمع حينما يقترن علمها الشرعي واختصاصها في مجال معين بدورها الروحي والتربوي الذي به يرتقي دورها التعليمي لتحقق تقريب المتعلم من الله.

- إبداع نوع من التلقي عن الله بواسطة من أعطاهم من علم الباطن بكل أسراره ومكنهم من علم الظاهر بكل غوامضه.

- الوظيفة العلمية التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالوظيفة الصوفية الدينية. فقد كان عبد السلام بن ريسون شيخ الزاوية الريسونية، يقيم مجالس تدور فيها مناقشات علمية، ومذاكرات دينية وصوفية وتوجيهات خلقية واجتماعية، يشارك فيها نخبة من علماء ذلك العهد من تطوان وخارجها[1].

---

* - أستاذ باحث - كلية الآداب بن مسيك.

فقد ذكر دوفوكو[2]، أنه كان بحوزة سيدي بن داود خزانة وافرة الكتب، لكن لا أحد يستعملها أو يقرأ فيها. كما أن بعد وفاة سيدي العربي سنة 1819، لم يقم أي واحد من مقدمي الزاوية بعده بالتدريس فيها كما جرت العادة منذ عهد سيدي امحمد الشرقي.

لكن رغم ذلك فإن مكانة الشيوخ وشهرتهم بالصلاح ومنح البركة لم تتغير في نظر الناس.

-وسائل التثقيف الصوفي، ومنها جلسات الذكر والتعبد -دراسة كتب التصوف المختلفة وفهم مفاهيمها في مختلف درجاتها- إقامة حلقات النقاش وتبادل المواعظ والأمثال التي تحتاج لمعرفتها بلوغ مراتب يتدرج فيها المريد ليضل لدرجة العارف التي لا تتأتى إلا لمن كشفت عن مكبه الفتاوة فرأى نور الله من خلال:

– ارتباط ثقافة النخبة المغربية بالموروث الإسلامي الصوفي، إذ من المؤكد تاريخيا أن ثقافة النخبة المغربية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بعلمائها وفقهائها وكتاب مخزنها وأدبائها، كانت ذات صبغة دينية إسلامية تعود أبرز مظاهرها إلى الفترة المرينية في القرن الثالث عشر الميلادي، وقد استقرت منذ تلك المرحلة الأصول الأساسية لوحدة المغاربة في مجالات اللغة والفقه والعقيدة وغيرها، حيث حلت اللغة العربية محل اللهجات الأمازيغية في المجال الثقافي والعقائدي[3]، وتم تحقيق الوحدة المذهبية في إطار الفقه المالكي والعمل به في مجال التعليم والأحكام والفتاوى مع انتشار حركة إصلاحية للتوحيد في هذا المجال[4]. وقد زكى هذه الحركة التوحيدية إجماع المغاربة على مقاومة الحملات الأجنبية للبرتغاليين على البلاد في إطار صيغة إسلامية لما يعرف بالجهاد في سبيل الله، هذا الجهاد الذي لم ينقطع طيلة ما يزيد عن أربعة قرون بعد ذلك، مما وطد فكرة التضامن والتآزر كواجب مقدس ضد الآخرين[5]. وقد خلق كل ذلك وحدة الالتفاف حول الحاكم الذي يندرج اسمه من أمير المسلمين إلى أمير المؤمنين ليؤكد كل ذلك ارتباط الفكر السياسي بالفكر الديني الإسلامي[6]، الذي أفرز تقليد البيعة كرمز وعقد لذلك الالتفاف. كما أن الاستناد إلى مبدأ الشرف في اختيار هذا الحاكم منذ العهد السعدي،

[1]- الحاج محمد عزيمان"الدور الحضاري سيدي عبد السلام بن ريسون" الذكرى المأوية لوفاة سيدي عبد السلام بن ريسون 16 شوال 1299-15 شوال 1399) تطوان مطابع الشويخ ديسبريس 1970، ص:33.

[2]- أورده ايكلمان"الإسلام في المغرب"، البيضاء دار توبقال للنشر 1989، ترجمة محمد أعفيف ص: 77- 78.

[3]- محمد المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، ص: 258

[4]- نفسه، ص: 26.

[5]- جرمان عياش، حول تكوين الشعب المغربي، ضمن دراسات في تاريخ المغرب، ص: 339

[6]- نفسه، ص: 330.

أو في مساندة حصوله على السلطة على الأقل، دفع بعناصر التوحيد الايديولوجي - في إطار ثقافة النخبة - إلى الأمام في تعميق الاستناد على الموروث الإسلامي في أبعد أعماقه[1].

وهذا الأمر يجرنا إلى الحديث عن التطور الذي صاحب هذا الأمر والمتعلق بها سيطرأ على الخزانات المخصصة لحفظ الكتب وجعلها في متناول القراء، وارتباط ذلك بمجال التعليم. وقد أحصى المختار السوسي فقط ما يزيد عن العشرين خزانة للكتب يغلب الطابع الديني على الكتب المستعملة منها في التدريس وما يحيط به وهي خزانات في أغلبها تضم الكتب المخطوطة، حيث كان طلبة الزوايا يشتغلون في استنساخ الكتب، حيث يذكر أن بالخزانة المسعودية مثلا دفاتر مستنسخة وصلت إلى ألف مستنسخ، وقلما نجد في جرد المختار السوسي ذكر للاهتمام بالكتب المطبوعة إلا قليلا[2]. كما هو الشأن في إشارته حول الخزانة المسعودية التي أسسها سيدي مسعود المعمري وتوزعت كتبها فيما بعد على حفدته، حيث يذكر عنه أنه اهتم بشراء الكثير من الكتب المطبوعة التي ضمتها خزانته. ويمكننا من خلال الجرد التالي لبعض الخزائن السوسية أن نلاحظ الجرد التاريخي لهذه الظاهرة قبل أن نشير إلى التطورات التي حصلت مع العشرية الثانية من القرن العشرين في هذا المجال.

هذا بالإضافة إلى عدد من الخزائن التي زارها المختار السوسي وأكد على أهمية محتوياتها وبقائها مصونة إلى حين زيارته لها مثل الخزانة اليزيدية والتمجدثية التي ضمت أكثر من 2000 كتاب.

وللإشارة كذلك فالنخبة المثقفة في هذه المرحلة كانت ولوعة بشراء الكتب سواء المخطوطة أو المطبوعة وكانت كل الأسماء الواردة في مجال الثقافة والسياسة آنذاك تتوفر على خزانات خاصة للكتب تعتبر في عداد الخزائن العامة التي ترتبط بالمساجد الكبرى أو بالزوايا في المجال البدوي ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

الخزانة	تاريخها	مآلها في بداية القرن العشرين
المسعودية	القرن التاسع عشر	
العمرية	عمرت من ق10ه/ 14ه	زارها المختار السوسي أوائل ق20 ولاحظ على محتوياتها
المحجوبية	من القرن 11/ 14 ه	" "

[1]- نفسه، ص: 337.
[2]- الوزاني: مذكرات ...ج 2، ص: 320-341.

الحيشتمية	تعـود إلى القـرن 11ه قـرب تافراوت	" "
الازاريغية	تعود إلى القرن 10ه	" "
تاكاركوستية	تعود إلى القرن 10ه	" "
الهنائية	تعود إلى القرن 12ه	كانت عامرة أوائل القرن 20م
الخـزائن الجرارية		وهـي عـدة خـزائن بقبائـل أولاد جـرار قـرب تيزنيت
الطاهرية	خزانة الحاج الحسين الطاهري ق14ه	تعرضـت للنهـب سـنة 1918حيـث سرق منهاحوالي 1700كتاب
الالغيات	خزائن متعددة تعود لعائلة الألغي والد المختار السوسي	بها حوالي 1000 كتاب

موقع التصوف في ثقافة نخبة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

كتابة المخطوط بشكل متكرر من أجل تعدد نسخه، أمر لم يكن لينطبق على كل المؤلفات بل هو ظاهرة تخص مؤلفات بعينها، فظاهرة نسخ الكتب لم تكن عملية موجهة لإشاعة المعرفة بالجديد من الكتب والمؤلفات بين عامة الناس بل كانت عملية محدودة في عدد من الكتب المعروفة والمتداولة بشكل كبير بين المهتمين فالنساخ كانوا يعملون بشكل يستجيب للطلبات المعروضة عليهم من طرف بعض ممن لهم اهتمام بالعلم والمعرفة حسب خصوصياتها الدينية والتربوية. وقد انحصرت هذه الفئات بالنسبة للقرن التاسع عشر في المغرب كما يلي: - الفقهاء والعلماء المدرسون أو العاملون مع المخزن في مختلف الخطط - المتصوفة من رواد الزوايا ومقدميها وعلمائها.

ولهذا السبب انحصرت أنواع الكتب التي يطلب نسخها بكثرة بالخصوص في الكتب الدينية الأساسية التي تحظى باهتمام علية القوم وأعيانهم وأشرافهم من العلماء والفقهاء. وهكذا ستحظى بأسبقية النسخ وتكراره المراجع الأساسية للفكر والثقافة الإسلامية وتميز منها في مغرب القرن التاسع عشر بتكرار نسخه كتب: القرآن الكريم – صحيح البخاري – مختصر الشيخ خليل وشروحه – دلائل الخيرات.

حينما نلقي نظرة خاطفة على خصوصية أي من الكتب السالفة الذكر، سنجد القرآن الكريم باعتباره كتاب الله والمرجع الرئيس للديانة الإسلامية غنية عن كل تعريف، وتستلزم اهتماما استثنائيا من طرف الجميع خاصة وعامة ساعين للحصول عليه من أجل تلاوته أو حفظه أو تعليمه للطلاب وغير ذلك. أما صحيح البخاري فبالإضافة إلى خصوصيته ككتاب جامع للأحاديث النبوية الشريفة فقد حظي بعناية خاصة من طرف العلماء، منذ وصوله إلى المغرب خلال القرن الحادي عشر الميلادي، وازدادت هذه العناية خصوصية في العهد السعدي وتطورت بشكل أخص مع العلويين منذ العهد الإسماعيلي[1]، وأصبحت تقليدا مخزنيا عند معظم السلاطين العلويين فيما بعد. أما كتاب دلائل الخيرات فقد اكتسب أهميته من العناية الخاصة التي أولاها المتصوفة في بلاد المغرب للاتجاه الشاذلي في التصوف الذي اشتهر ضمنه كتاب دلائل الخيرات للجزولي حيث أصبح متداولا عند مختلف الطرق الصوفية الأكثر شعبية، وإن كانت لكل منها أورادها الخاصة بها، إذ لا يوجد كتاب أساسي في التصوف موحد للطرق الصوفية بسبب تنافسها في استقطاب المريدين[2].

وهناك العديد من الكتب الأخرى التي حظيت بعناية فائقة في عملية النسخ وتكراره إلا أن أي منها لم يبلغ درجة الكتب السالفة الذكر، حيث تنحصر في نسخ معدودة قد لا تتعدى عدد أصابع اليد الواحدة حينما يتعلق الأمر بالجديد من التآليف التي لم تشتهر عند المتعلمين والمدرسين وغيرهم.

والملاحظ كذلك أن اقصى ما وصل إليه تكرار النسخ لبعض الكتب لم يتجاوز 200 نسخة للكتاب الواحد[3]. وكانت هذه الكتب في غالبيتها إما موجهة لسد طلبات المدرسين من العلماء لبعض المتون التعليمية[4]، أو تحت طلب الفئات العليا داخل المجتمع من الأسرة السلطانية، والعلماء والمتصوفة[5]. إلا أن هذا الرقم لا ينطبق على الأمهات الأساسية السالفة الذكر كالقرآن الكريم الذي توالى استنساخه بشكل متواصل قبل القرن التاسع عشر، وأثناءه خصوصا بالنسبة للنساخين الذين كانت النساخة مصدر عيش لهم مثل المعطي التلالي (ت 1846)، الذي نسخ ما مجموعه 1000 نسخة من القرآن الكريم

---

[1]- فوزي عبد الرزاق: تاريخ الطباعة في المغرب 1865- 1912، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب الرباط، 1996، ص: 56- 58.

[2]- نفسه، ص: 165

[3]- نسخ من كتاب شرح التحفة لابن عاصم 200 نسخة من أجل التدريس، فوزي، م س، ص: 49، وكذلك المنوني، ت الوراقة ص:165.

[4]- فوزي عبد الرزاق م س ص: 50-51.

[5]- نفسه، ص: 48.

ودلائل الخيرات في حوالي 40 سنة بمعدل وصل إلى 30 مجلدا في السنة مما يعكس أهمية الاستعمال المكثف لهذه الكتب المميزة[1].

وقد انحصرت مواضيع الكتب المخطوطة فيما يلي: - علوم الشريعة - التصوف. 3 -الشعر. 4 - أعمال عملية قليلة في الحساب والهندسة. 5 -أدب الرحلات. 6 -الطب. 7 -التاريخ.[2]

وتمثل هذه اللائحة من المواضيع مجمل العلوم والمعارف التي كانت معروفة في المغرب آنئذ، والتي كانت تنسخ كتبها من طرف الناسخين وتراقب نسخها من طرف المحتسب للتأكد من سلامة الكتب الموجهة للبيع من حيث جودة حبرها وورقها وقابليتها للقراء ومراعاة مضمونها للقيم الأخلاقية والدينية السائدة في المجتمع[3]. على الرغم من أن عملية نسخ الكتب كانت تعتبر شكلا من أشكال العبادة عند العلماء والفقهاء تستلزم رقابة ذاتية تقتضي الحفاظ على المذهب المالكي والإبقاء على خصوصيات الخط التقليدي الذي كتب به القرآن – والذي يعتبرونه كذلك مقدسا قدسية القرآن ذاته–[4].

- كتب المناقب: وهي كتب السيرة الخاصة تتعلق بجوانب من حياة أقطاب الزوايا وسرد لكراماتهم وتعريف بها، إلا أن أعدادها قليلة بالمقارنة مع كثرة الطرق المنتشرة بالمغرب.

وقد انتشرت كتب التصوف بين الناس بصورة ملفتة للانتباه حيث أنتجت المطبعة الحجرية الفاسية حوالي 38000 نسخة من كتب التصوف في الفترة ما بين 1865 و1920 باعتماد 128 عنوان الواردة في بيبلوغرافية بروفنصال وبن شنب بمعدل 300 نسخة للعنوان.

- التصوف في إطار العلوم: على الرغم من أن بداية هذه المرحلة قد شهدت إدخال الطباعة الحجرية إلى المغرب وبداية إنتاج كتب مطبوعة بواسطتها، فإن إنتاج الكتاب المخطوط لم يتوقف بالإضافة إلى أن مهنة النسخ وجدت في استعمال الاختراع الجديد استمراريتها لعملها في كتابة المخطوطات المعدة للطبع[5]، بالإضافة إلى أن العديد من نخب المثقفين ومن الفقهاء قد واجهوا هذا التجديد في إنتاج الكتاب بالتصدي له والدفاع عن الكتب الخطية إلى درجة التأليف في الأمر، كما فعل

1- فوزي، م س، ص: 55.
2- البلغيتي الابتهاج م س ص: 230- 234.
3- فوزي، م س ص: 39.
4- المنوني ت الوراقة ص: 12.
5- ترجمته في الإعلام للمراكشي ج7 ص: 190-210.

محمد ابراهيم السباعي[1] في الرسالة التي ألفها في "مدح القلم والحض على الكتب الخطية والاعتناء بها لكونها فيها البركة وعليها الاعتماد والتحذير من الكتب المطبوعة وبيان أنها سبب في تقليل الهمم وعدم حفظ العلم ونسيانه"[2].

وحتى بعد انتشار الطباعة في بداية القرن العشرين فإن ظهورها كذلك لم يؤثر كثيرا على نشاط النساخة بالإضافة إلى استمرار الموقف السلبي -نسبيا- من الكتاب المطبوع حيث كان البعض يعدل عن قراءة الكتاب المطبوع إلا بعد كتابته بخط اليد كما فعل البعض بالنسبة للمطبوعات المصرية، حيث كانوا يعيدون كتابتها بالخط المغربي ناقلين الكلمة الختامية لمصحح المطبوع في نهاية الكتاب[3].

وقد حافظ النساخون في هذه المرحلة وعلى الأقل إلى حدود 1912 على اعدادهم التي تراوحت ما بين 100 و120 ناسخ في كل أنحاء المغرب[4]. ويؤكد العلامة المنوني في كتابه عن الوراقة المغربية أن هذه المرحلة شهدت ازدهارا في هذا الميدان إلى درجة تزايد معها دخل الوراقين من النساخة فمنهم من اكتسب منها عقارا ومنهم من كانت مورد عيشه الوحيد.

وتعدد الأمثلة على ذلك بالرغم[5] من إنتاج الورق (الكاغد) المحلي قد توقف في هذه المرحلة، وصار الاعتماد على الورق المستورد من أوربا[6]. ولعل مما ساعد على هذا الازدهار استمرار عناية المخزن بهذا الميدان وخصوصا في عهد السلطان الحسن الأول الذي تتحدث كل المصادر المؤرخة لعهده على هذا الاعتناء[7] الذي يمكن تلخيص مجمل عناصره فيما يلي: -عناية خاصة منه بنسخ الكتب والحث على ذلك. -توفير ظروف ملائمة لوراقة رسمية تحت إشرافه ومراقبته. - تكليف من يشرف على أعمال الوراقة المختلفة بصورة رسمية.

والملاحظ أن العناية بالنساخة والمخطوطات قد تراجعت في العهد العزيزي حيث لم يظهر إلا منتسخ واحد في هذا العهد هو "التبر المسبوك في نصيحة الملوك" للغزالي بخط ابراهيم السجستاني[8]. وعلى الرغم من تزايد مزاحمة الطباعة الحجرية والسلكية لميدان نشر الكتب الخطية بعد 1912، فإن

[1]- المنوني ت الوراقة ص: 202.
[2]- نفسه، ص: 263- 229.
[3]- نفسه ص: 229- 263 .
[4]- المنوني ت الوراقة ص: 229.
[5]- نفسه، ص: 232.
[6]- منها على الخصوص لعبد الرحمن بن زيدان، الدرر الفاخرة ص 40 والعز والصولة ج1 ص: 227
[7]- المنوني نفسه ص: 236.
[8]- نسبة الربع على الأقل ثابتة بالنسبة لحوالي 405 عنوان مطبوع من صورة ما بين 1865 و1920 حسب فهرس بروفانسال وابن شنب الصادر سنة 1922، انظر فوزي تاريخ الطباعة ص: 252.

استمرار نسخ الكتب الأكثر شعبية بين الناس كالمصحف الشريف والصحيحين والموطأ والشمائل والشفا ودلائل الخيرات قد استمر بشكل من الأشكال، وإن ظل محدودا في أسماء معينة.

هيمنة التأليف في التصوف

يصعب التطرق لكل جوانب مضمون المطبوعات الحجرية الفاسية بالنظر لتنوع موضوعات التأليف واختلافها منذ عهد المخطوطات، الأمر الذي استمر، في مرحلة استخدام الطباعة، إلا أنه يمكن تقسيمها حسب أنماط كبرى هي الغالبة على كل ما ألف وطبع وهي بذلك تختصر الجوانب الكبرى لاهتمامات الثقافة في هذه المرحلة وهذه الأنماط الثلاثة هي: -التصوف -الفقه -الأدبيات المختلفة.

فعلى الرغم من أنه يمكننا وصف الثقافة المغربية في المرحلة المدروسة بصفتها رافدا من روافد الثقافة العربية الإسلامية، بأنها ثقافة فقهية، فإننا نجد أن كتب التصوف وما يرتبط به تشكل المرتبة الأولى من الكتب المطبوعة على الحجر بنسبة (الربع تقريبا)[1] ويمكننا أن نميز داخل هذه المجموعة من المؤلفات بين ستة أنواع كالتالي: - كتب التصوف الكلاسيكية التي تعود إلى المرحلة ما قبل 1864م (تمثل 10 كتب من 128 كتابا مطبوعا في إطار التصوف) - كتب التصوف العلمية والتي تشمل بالخصوص أوراد الطرق وما يجب تعلمه للعمل به في إطار الطرقية وقد شملت 118 من 128 عنوانا-أدبيات المديح النبوي وقد كانت منتشرة بكثرة كما كان عليه الحال في عصر المخطوطات - أدبيات التبرير والدفاع عن التصوف وهي تتضمن كتبا تتكلف بتبرير ممارسات الطرقية والدفاع عنها باعتبارها غير خارجة عن نطاق التعاليم الدينية بالإضافة إلى ممارسة تلميع صورة كل طريقة صوفية أمام بقية الطرق. كتابات (الحزب)، وهي تعكس التنافس بين الطرق لاستقطاب الأتباع وقد طبعت كثيرا ما بين 1892 و1910 وهي تخص كل طريقة على حدة.

وعلى العموم فقد تحكمت في المؤلفات المطبوعة خلال هذه المرحلة دواعي أساسية يمكننا تلخيصها فيما يلي:

– التدريس: ونلاحظ بأنه استحوذ على معظم الكتب المطبوعة كوازع للتأليف والنشر مسايرا الإطار الذي كان يدفع إلى الكتابة في إطار الوراقة في عهد المخطوطات. – إشاعة الاتجاهات الصوفية ويدل على أهمية هذا الداعي كثرة كتب التصوف التي ألفت وخصوصا الكتب الموجهة لمريدي الطرق.

---

[1]- ابن الموقت: الرحلة المراكشية، ج1، ص: 52- 53، وتوجد إشارات بنفس المعنى في الجزء 2 ص: 114- 115، و ج 3، ص: 130.

- تمكين الناس من حل مشاكلهم في إطار الشريعة وجريا على اجتهادات العلماء في ذلك، ولعل كتب النوازل الفقهية أكبر دليل على ذلك حيث طبع معيار الونشريسي وتبعه المعيار الجديد للمهدي الوزاني وتم طبع كتب خاصة بالعمل الفاسي وشروحه وملخصاته وكثير من كتب النوازل الصغرى مع الإشارة إلى أن العديد كذلك من هذه النوعية من كتب النوازل ظل مخطوطا عند مؤلفيه.

وتأتي مساهمة الطباعة بشكل عام في إحياء التراث لتمنحنا فرصة الحديث عن مشكلة كانت تعترض طبع التراث الديني المقدس ألا وهو القرآن الكريم الذي لم يسمح الفقهاء بطبعه بسهولة ولم يبدأ ذلك في المغرب إلا سنة 1879.

هذا معناه بأن الكتاب المطبوع سواء على الحجر أو بواسطة الطباعة السلكية قد بدأ ينتشر بين الناس، وأن انتشاره كانت له فوائد جمة وإن اعترتها مثل هذه المشاكل التي تتعلق بحالات الإهمال وعدم الصرامة في ممارسة صناعة الطباعة، الأمر الذي لا شك قد شمل الكثير من المطبوعات إلا أن خصوصية القرآن وقدسيته جعلت الأمر يثير ما أثر من ردود فعل، وإن كانت هذه السلبيات محدودة.

استغلال التصوف للوسائل الجديدة للمثقفين (الصحافة نموذجا)

لم تتفتح النخبة المغربية على الصحافة إلا ببطء وبصورة تدريجية، ولم يشمل هذا الانفتاح إلا جزءا من النخبة، حيث ظلت غالبية العلماء التقليديين في معزل عن قراءة الصحف، فضلا عن المساهمة فيها بالكتابة والنشر. وقد أفرز هذا الواقع بروز اتجاهين متناقضين داخل النخبة المغربية، أولهما كان لا يمانع صراحة في التعامل مع الصحف، فقد كان لا يساهم عمليا وتقل الإشارات التي تدل على وجود منافحين عن ضرورة الابتعاد عن الصحف واعتبارها أثرا أوربيا يجب الابتعاد عنه، إلا أن ذلك لا يعني انعدام الرأي كلية، ودليل ذلك ما نجده عند ابن الموقت في كتاب مرآة المساوئ الوقتية حيث يقول: "... فما رأيك في تلك الصحف التي باتت تنسج بغير فرقان على صاحب الدار والقريب، وتفرض بلا مبالاة عرض البعيد والقريب، أترى في وجودها ضررا محضا، أو منفعة خالصة، أم هي كالخمر في حيالها قد جمعت بين الإثم والمنافع فوجودها بيننا ضار نافع".

قال الشيخ عبد الهادي: "لقد نظرت قبل اليوم في مثل هذا السؤال وما احتوى عليه من الهدي والضلال، فألقيت فيه شرا قائما وخيرا جاثما..."[1].

[1]ـ المراكشي: الإعلام بمن حل بمراكش... ج3، ص: 123، في ترجمة السلطان مولاي الحسن هامش رقم:

بالإضافة إلى الرواية الشفهية التي يذكرها عبد الوهاب بن منصور بأن بعض علماء المغرب الجامدين في بداية القرن 14 هـ ألف كتابا سماه "الضرب بالزراويط على رأس من يقرأ الكازيط"[1].

ومما يدل على انتشار هذا الموقف بين أوساط العلماء والفقهاء ما نستخلصه من النداء الذي وجهته صحيفة السعادة إلى هؤلاء بقصد الكتابة فيها على إثر نشرها لخبر عن الوعظ الديني في مصر حيث يقول النداء: "فأين أنتم أيها العلماء والفقهاء في هذا القطر السعيد فمالكم لا ترشدون ولا تذكرون ولا تنصحون وتلك من أجل الأمور التي تؤاخذون عليها لأنه لم يفتح عليكم بما عندكم من المعرفة وسعة الاطلاع إلا لتكونوا قدوة لغيركم في علمكم وعملكم فعظونا ألهمكم الله لما فيه المنفعة والخير لهذه الأمة. وتشبهوا بعلماء الشرق إن التشبه بالكرام حلال فهاتوا لنا من وعظكم ما نحلي به جيد هذه "السعادة" وتفضلوا بدور علمكم على هذه الرعية..."[2].

أما الاتجاه الثاني فهو الرأي المساند للصحف والمتعامل معها قراءة وكتابة، والذي يظهر لنا من خلال العديد من الأمثلة التي جعلت من الدفاع عن الصحافة والتذكير بأهميتها داخل المجتمع والتعريف بمناخها المختلف موضوعا للعديد من المقالات الصحفية في مختلف الصحف التي راجت بين المغاربة آنئذ.

فقد كتب محمد العربي الخطيب في افتتاحية العدد 17 من صحيفة "شمال افريقيا" يقول: "فقراءة الجرائد اليومية لدى العقلاء من الأمور اللازمة مثل المأكل والمشرب والنوم، فلا يطيب لهم العيش بدونها، ولا يجدون راحة إلا بالاطلاع عليها، بحث يعلمون بها سير العالم وحركته في ذلك اليوم لأن مبنى حركاتهم على حركات العالم بأسره اقتصاديا وسياسيا"[3]. كما كتب محمد السليماني في السعادة يقول: "فالواجب على كل ذي دراية أن تكون له بمطالعة الجرائد عناية، ويقدرها ويرعاها حق رعايتها...". وبعد أن عدد الكثير من مزايا الصحف وارتباطها بكل مناحي اهتمامات الإنسان يختم مقالته بقوله:"... غير أنه لا يدرك المقصود منها إلا بتعميم قراءتها على طبقات الناس وتعميم الاشتراك فيها بين سائر الأجناس فمن الممكن لها يد المساعدة وأعانوا رجالها بهذه المعاضدة حتى بلغوا منها المأمول واجتنوا من رياضها ثمار المنى والسؤل، أما نحن فقد ضربنا فوائدها صفحا وطوينا دونها كشحا، مع أننا أحق بها وأحرى، وعندي بحول الله أبين ذلك في مقالة أخرى"[4].

1- السعادة 11 نوفمبر 1910.

2- شمال افريقيا عدد 4 يونيو 1918، نقلا عن اسماعيل الخطيب، محمد بن العربي الخطيب رائد العمل الصحفي في شمال افريقيا، ص: 70.

3- محمد السليماني: الجرائد ومزاياها، السعادة نوفمبر 1916.

4- السعادة 9 نوفمبر 1909، والمقال عبارة عن رواية لحلم مفترض لبوعزاوي يوجه من خلاله انتقادا مباشرا للطرقية.

ونقتطف من مقال مطول آخر لمحمد العربي الخطيب ما يلي: "الجريدة في الأمم المتمدنة عبارة عن صحيفة تذكر بين العموم لتبين لهم حالهم ومستقبلهم وما هم عليه من الرقي أو التدني منفرة من الثاني ومحرضة على الأول تأخذ بيدهم أخذ الرؤوف المشفق، فتبين لهم خطتهم التي اختطوها لسيرهم وطريقهم التي سلكوها في مشيهم ثم تحكم على ذلك بأدلة.

بخصوص التصوف يمكن التمييز في هذا الصدد بين المقالات الصادرة قبل الحماية والمقالات الصادرة بعد ذلك، حيث تميزت الأولى بنوع من الانتقاد المباشر والجريء لأفكار الطرقية مع ربطها بواقع الأحداث العامة داخل المجتمع كما هو الشأن في مقال "حلم البوعزاوي والكتاني" والذي يوجه انتقادا ضمنيا للطرقية من خلال رواية حلم مفترض للفقيه البوعزاوي رأى فيه الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني بعد وفاته وخاطبه قائلا: "يا سيدي محمد يا سيدي الشيخ الكتاني لا تسألني كيف حال الطرق في أيام مولاي عبد الحفيظ، فلقد سمعته يقول إن المدفع أفضل من الزاوية، ولكن الزاوية لا تسكت المدفع. وأنا اليوم من رأي مولاي حفيظ لأن الشيخ بونوالة قد أصابته قنبلة مدفع في الشاوية فأحرقته مع نوالته، وكم عزمت وتكهنت في معارك الشاوية فلم يكن ما اعتقدته من قوة السحر غير الأكاذيب...".

على أن أهم موضوع في هذا الصدد هو موضوع "المهدوية في الإسلام" الذي استغرق عدة مقالات هي عبارة عن حوار مفتوح على صفحات السعادة بين فقيه عالم من فاس وفقيه آخر من طنجة كل منهما يدافع عن وجهة نظره في الموضوع وقد قدمت "السعادة" لأحد مقالات هذا الموضوع.

إن الصحيفة ستتراجع بعد 1912 عن نشر المقالات المحاربة بشدة لأفكار الطرق الصوفية بل ستجعل من أخبار احتفالات هذه الطرق بمواسمها مادة إخبارية تصبغ عليها طابع المدح والقبول.

لقد ساهمت بعض الصحف الجزائرية في إثارة العديد من النقاشات والجدل الذي روج لجانب من الأفكار التي كانت سائدة في الأوساط الثقافية المغربية، وهي أفكار الطرق الصوفية وكمثال على ذلك صحيفة البلاغ الجزائري ذات النزعة الصوفية التي كان يكتب فيها العديد من المغاربة أمثال أحمد سكيرج وغيره من الطرقيين من فاس والرباط.

أما بالنسبة للموضوعات الخاصة بمحاربة البدع والعوائد الضارة بالمجتمع فنصيبها محدود في الكتابات الصحفية في جريدة "السعادة" إذا ما قارناها بما خصته "الإصلاح" أو "شمال افريقيا" لهذا الموضوع حيث ركزت العديد من مقالات الخطيب على انتقاد مواسم الطرق الدينية "الشعبية" مثل

"حمادشة وعيساوة"، الأمر الذي لا نجد له مثلا في السعادة إلا بشكل نادر حيث لا تنتقد ممارسات الطرقيين إلا بصورة محتشمة وفي مقالات ليس غرضها الأساسي موضوع الطرق بقدر ما تركز على موضوعات أخرى ولا تجد مناصا من بعض الانتقاد للطرقية لا يمس بأوضاع الطرقيين الاجتماعية.

الخلاصات

في الخلاصات نؤكد مايلي:

- هيمنة التصوف كإطار للثقافة سواء في مرحلة التعلم أو العطاء في سياق تاريخي طويل الأمد.

- تأثير بعض جوانب التجديد الطارئ في المرحلة (نهاية القرن 19 وبداية 20) على الممارسة الصوفية في محاولة الاستفادة منها من قبيل الصحافة بعد الطباعة.

- تأثير تقاليد الصوفية من اجتهادات ولقاءات في إطار مجالس الذكر، إلى اكتساب نفس الإطار التنظيمي لمجالس أخرى يؤطرها موضوع بث الوعي الوطني وثقافة العصر بصورة عامة.

- بقاء الإنتاج الثقافي مرتبطا بالتصوف سواء في إطار أدبيات الصراع بين السلفية والطرقية. أو كتابات المنافسة بين الطرق المختلفة للمتصوفة.

- تأثير التصوف على بعض المواقف الفكرية مثل: محاولة عدم الاستفادة من البنيات الجديدة كالصحافة والطباعة إلا قليلا.

- الانتصار للكتاب المخطوط مقابل ذم المطبوع وربط ذلك بالبركة والزهد وغيرها.